

قبة المسجف

قبة ابوية جميلة في طريق المزة^(١) القديم الذي من جهة حي باب السريجة . تقع هذه القبة في مركز ممتاز قديماً فهي قرب المزة التي كان سكانها بني كلب اصهار بني أمية وأنصارهم . وتحيط بها خطط القبائل اليمنية من أكثر جهاتها ففي قلبها طريق يوصل الى كفر سوسية والى داريا وخولان ، وفي شرقها تنتشر خطط صنعاء وفينية والحيريين وكلها منازل قبائل يمنية .

أما اليوم فهي تبعد عن شرقي المزة بنحو ربع ساعة وعن شمالي كفر سوسية نحو ثلث ساعة وفي شرقها الطريق الموصل الى باب السريجة . وموضع القبة جميل جداً فهي تقوم وسط شبه جزيرة تحيط بها جداول الماء من جميع جهاتها عدا الشرق وتظللها الأشجار الباسقة من جوز وزيتون ومشمش وحوار فهي في ظل ظليل وماء سلسبيل . ابعاد اضلاع هذه القبة اربعة امتار و (٩٥ س) تقريباً وهي تقوم على جدار قبلي فيه نافذتان صغيرتان سفليتان عن يمين محراب رشيق ويساره . وهذا الجدار مبني بالحجارة المزية المصقولة وقد زين بسطر من الخط النسخي الجميل يتدي من الغرب الى داخل المحراب ثم يتم في الجهة الشرقية من الجدار وقد كتب فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم انما بعدر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة واتا الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين^(٢))

أما من جهة الشرق والغرب والشمال فالقبة مفتوحة تقوم في كل جهة منها على فوس يقوم على دعامتين . وقد اعتني بجهتها الشرقية أكثر من بقية الجهات لمقابلتها القادم من مدينة دمشق فصقلت حجارة قوسها الشرقي وزينت بإطار من الخط الجميل ابتدئ به من الدعامة الشمالية ومشى الخط مع القوس حتى انتهى في الدعامة الجنوبية الشرقية وصورة ما كتب فيه (في بيوت اذن الله ان ترفع وبذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو

(١) المزة قرية قريية دمشق تبعد عنها نحو ثلاثة آلاف متر . (٢) سورة التوبة / ١٨ .

والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وابتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه [القلوب والأبصار^(١)].

قبر المسجف

شمالي هذه القبة لجهة الشرق بنحو مترين يقع قبر المسجف ويفصل بينه وبين القبة طريق يوصل الى المزة يبلغ عرضه اربعة امتار تقريباً . وهذا القبر ضمن حديقة صغيرة مسورة بسور من دك تظللها اشجار الزيتون . وكان القبر ملبساً بطبقة كسبية ازالها مصلحة الآثار فظهرت احجاره المنحوتة التي لا تزال يمجدها . واصحاب البساتين في تلك الجهة يدفنون اولادهم الصغار الى جانب القبر ويسمون قبر الصغير خشخاشة .

جبهة قبر المسجف وخوخته

مقابل القبر لجهة القبلة جبهة بقوس يشبه القوس الشرقي للقبة الا انها آخذة في التداخي وقد سد القوس ببناء وجعل ضمنه خوخة^(٢) وفوق عتبة الخوخة طاقة بوضع فيها سراج يقدم له اصحاب البساتين والقرى زيت النذور لتوقد فيه . وقد نقش على القوس بخط جميل ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم ببشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وحنان لم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابدآ ان الله عنده اجر عظيم^(٣) . كل نفس ذائقة الموت^(٤)) .

ويجد المستقبل لهذه الجبهة عن يمينها ويسارها كتابة تتعلق بتاريخها واسم مشيدها فالكتابة التي على اليسار هي : - (١) بسم الله الرحمن هذا قبر الفقير (٢) الى رحمة الله الزكي ابو القاسم بن غنا (٣) يم بن يوسف العسقلاني المعروف (٤) بالمسجف توفي يوم الثلثا النصف من (٥) ذو القعدة سنة خمس وعشرين وستا [٦] .

والمكتوب على اليسار هو : - (١) بسم الله الرحمن الرحيم جدد (٢) عمارة هذه التربة المباركة ولده بدر (٣) الدين عبد الرحمن وكتب في مستهل (٥) رجب سنة سبع وعشرين وستا [٦] .

وينبغي ان نشير هنا الى ان عبد الرحمن هذا توفي سنة (٦٣٥) ودفن عند ابيه .

(١) سورة التور / ٣٧ (٢) الخوخة باب صغير اذا مر منه الانسان طأطأ رأسه .

(٣) سورة التوبة / ٤١ و٤٢ (٤) سورة آل عمران / ١٨٥ والأنياب / ٣٥ والعبكوت / ٧٠ .

المصادر التي أشارت الى هذه القبة

لم يشر الى هذه القبة النعمي في تنبيه الطالب ولا من اختصر كتابه .
 وأول من أشار اليها فيما علمت ابن كثير في البداية والنهاية (١٤ / ٧٨ / ٢٤) فقد
 قال عن ابن عرفة انه توفي ببستان عند قبة المسجد^(١) ودفن بالمزة . وأشار اليها
 ابن عبد الهادي في ثمار المقاصد (ص ١٠٢) فقال : الحادي عشر مسجد بقبة
 المسجد^(٢) ، ثم اشار اليها محمد بن طولون تلميذ ابن عبد الهادي في كتابه المعزة
 فيما قيل في المزة (ص ٢٥) فنقل ترجمة عبد الرحمن المسجف عن الحافظ المنذري
 الذي قال عنه : انه دفن عند والده بأرض المزة فمعلق ابن طولون على كلام المنذري
 بقوله : « قلت » وهناك قبة معروفة به وكأنها بنيت عليه والله اعلم . ويظهر من
 كلامه انه لم يشاهدها ليعلم ان كان فيها قبر ام لا وانما تكلم حسب المؤلف من
 ان القبة تكون فوق القبر في اكثر الأحيان .

ترجمة المسجف

ضبط الحافظ المنذري لفظة المسجف بانها : بضم الميم وفتح السين المهمله وتشديد
 الجيم وكسرها وبمدها فاء .
 اما ابو القاسم بن غنائم بن يوسف العسقلاني المعروف بالمسجف فلا نعرف عنه
 اكثر من هذه الكنية والنسبة ، واما ابنه عبد الرحمن فهو :
 شاعر ابوي اكثر شعرة الهجاء . ولد سنة (٥٧٣) وتوفي سنة (٦٣٥) كان
 يشتغل بالتجارة وله رسوم على الملوك يحصل منها ثروة اخرى وخلف من الثروة
 خمسمائة الف درهم .

لا نعرف عن ابن تخرج . والظاهر انه كان ملماً بالثقافة الاسلامية
 الشائعة في عصره ، فقد وجدنا اسمه في قائمة تاج الدين الكندي التي عدد فيها
 تلامذته الذين حضروا عليه سنة (٥٩٨) قراءة المجلدة الرابعة من شرح معاني الآثار
 للطحاوي في المقصورة الخفية التي كانت في الجامع الأموي بدمشق .

(١) في النسخة المطبوعة : قبة المسجد والصواب ما أثبتناه (٢) في النسخة المطبوعة : مسجد
 القبة المسجف والصواب ما أثبتناه كما في النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق .

ويفيد ياقوت الرومي انه اجتمع به فيقول: انشدني عبد الرحمن المسجف^(١) لنفسه فقال:
 اربل دار الفسق حقاً فلا يعتمد العاقل تعزيرها
 لو لم تكن دار فسوق لما اصبح بيت النار دهليزها
 وهو بتغرب في سبيل التجارة وينتقل في البلاد فيصل الى الموصل ويشترى منه
 ملكها بدر الدين بن لوئول الاتابكي . أما نائب الملك امين الدين فيقصر في حقه
 فيشير عليه الناس بمصانفته فيأبى ويقول :

يقولون لو طاب قلب الأمين رجعت بدر نفيس ثمين
 فقلت أعود بلا حبه ولا طيب الله قلب الأمين
 ويحكي تجارته وامواله من الضرائب والزكاة ويجري لسانه في الدفاع عنها
 كما فعل مثل ذلك معاصره ابن عنين حينما هجا العزيز ملك مصر لأنه أخذ زكاة
 على تجارته^(٢) فيقول ابن المسجف مخاطباً الملك المعظم :

ايا ملكا حوى علماً وجوداً وحاز لكل مكرمة وفضل
 ومن هو كالمسيح^(٣) اسماً وفعلاً ونصباً للجباة وحزم محل^(٤)
 يكلفني اليه زكاة مالك حرام كله من غير حل
 وكيف يقوم بالزكوات من لا يصوم ولا يحج ولا يصلي
 نجد بهبات ذلك لي فإني اجل زكاتكم عن مال مثلي

ولا يرى ملوك عصره جديرين بالمدح فيوضح سبب مدحهم فيقول :

انا في جنيل خسيس وقبيل وزمان
 امدح السلطان كي يصبح مالي في امان
 اكذا كان ابو تمام قبلي وابن هاني

(١) معجم البلدان طبع مصر ٢ : ٣٧٥ : واوروبا ٢ : ٧٨١ وقد ورد فيها ابن المسجف بدلاً عن

[ابن المسجف] وهو ضعيف من الطالبيين . (٢) قال ابن عنين :

ماكل من يسمى بالعزيز لها أهل ولا كل برق سجه خدقه
 بين العزيزين بون في ضالمها هذا كيطي وهذا يأخذ الصدقة

ابو الفدا [٣ : ١٥٨] (٣) المعظم اسمه : عيسى (٤) فوات الوفيات [١ : ٢٥٩]

وفي الأصل [ونصب للجباة وحزم محل] ووضع المصح إشارة للإيهام في هذا النظر . ولعل
 الصواب ما أجهده ونهض أساذنا للفري الى أن الصواب في هذا البيت [ونصباً للجباة وخرى محل]

وحضر محيي الدين ابن الجوزي دمشق رسولاً من قبل المستنصر بالله العباسي فاتفق ان توفي اربعة من السلاطين العظماء وهم الملك الكامل صاحب مصر واخوه الملك الأشرف صاحب دمشق والملك العزيز صاحب حلب وكيقباد صاحب الروم فقال في ذلك مخاطباً الخليفة :

يا امام الهدى ابا جعفر المنصور يا من له الفخار الأثيل
ما جرى من رسولك محيي الدين في هذه البلاد قليل
جاء والأرض بالسلاطين تزهى وغدا والديار منهم طول
اقفر الزوم والشأم ومصر افهدا مفسل ام رسول
هذا خلاصة ما اطلعنا عليه من ترجمته . اما مصادرها فهي :

المعزة فيما قيل في المزه لابن طولون (ص ٢٥) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي
(٢٥٧/١) اجازة تاج الدين الكندي في آخر المجلدة الرابعة من شرح معاني الآثار
للطحاوي صورة الاجازة مصورة عن نسخة خطية كانت عند الأستاذ الشيخ حمدي السفرجلاني .
تاريخ ابي الفدا (١٦٤/٣) معجم البلدان لياقوت طبع مصر ٣٢٥/٢ وطبع اوروبا ٧٨١/١

ترميم القبة

منذ عشر سنين خلت سطا على هذه القبة بعض الأشقياء ممن يعتقدون في الكنوز فحفروا وسطها حتى نبع الماء في الحفرة ثم رجعوا اليها في اوقات مختلفة واخذوا بقلعون الأحجار من دعائمها الشرقية ظانين ان وراء الأحجار التي عليها الكتابة أموالاً مكنوزة يفعلون ذلك ليلاً حينما يخلو الطريق من المارين كما يخبرني بذلك بعض أصحاب البساتين المجاورين لها . وعشاً كان اقناعي لدائرة اوقاف دمشق في المحافظة عليها وارجاع الأحجار المقلوعة الى اماكنها . وفي العام الماضي اخبرت صديقي الأمير جعفر الحسيني بقصتها فزارها واهتم بأمرها ولم تمض يرهة من الزمن حتى بشرني بالشروع في ترميمها مباشرة مهندس مصلحة الآثار السورية المسيو آسي الذي تقدر له جهوده الطيبة نحو الآثار العربية الاسلامية وقد تمت الأعمال الأولية لها (سنة ١٩٤٣) وأتقنت هذه القبة من الانهيار فلأمير النبيل والمهندس التقدير جزيل الشكر على عملها المبرور .

محمد احمد دهمان